المحاضرة الرّابعة:

اللسانيات التراثية

تمهيد:

تزخر المكتبة اللّغويّة العربيّة بالعديد من صنوف التآليف اللّغويّة على مختلف المستويات في الأصوات، والأبنيّة، والتراكيب، والدّلالة، وغيرها من القضايا والظاهر، الّتي استوعبت كل ما يتعلق باللّغة العربيّة الفصحى في جميع أنحاء الدولة الإسلاميّة الكبرى.

لقد نهض العلماء العرب بدراسة هذه اللّغة وألفوا هذا الكم الهائل من الأعمال والكتب والرّسائل والمؤلّفات لخدمة القرآن الكريم (أسباب جمع اللّغة).

1- مجال الدّراسات الصّوتيّة:

لقد أبدع العلماء العرب في دراسة الأصوات العربيّة للدّرجة الّتي جعلت المستشرق الألماني "**برجشتراسر**" يصرّح بقوله:"**لم يسبق الأوربيين في هذه الدّراسة (يعني الأصوات) إلّا قومان العرب والهنود**". فلقد تميزت هذه الدّراسات الصّوتيّة عند العلماء العرب بسمات وخصائص تجعلها في هذه المكانة المرموقة، حيث أحاطت هذه الدّراسات بأصوات اللّغة العربيّة الفصحى وصفا عضويا دقيقا على المستوى النطقي والسمعي، فتحدّثوا عن مخارج الأصوات ومدارجها، كما تحدّثوا عن صفاتها المتنوّعة التي تصاحب الأصوات عند نطقها، ويتجلّى ذلك فيما صنعه "**الخليل**" في كتاب العين و"**سيبويه**" و"**المبرد**" و"**ابن جنّي**" وغيرهم من العلماء، كما كانت لجهود كل من "**ابن سينا**" و"**الفارابي**" أثر واضح في دراسة الأصوات العربيّة دراسة تجريبيّة فيزيقيّة.

ولسنا نبالغ ذكر الحقيقة عندما نؤكد أنّ العلماء العرب قد درسوا الأصوات العربية دراسة وصفية محضة بقطع النظر عن كونها موجودة في سياق لغوي، أي تلك الدراسة المادية الخالصة، الّتي يطلق عليها في الدّرس اللسانيّ الحديث بالدراسة الفوناتيكية (Phonétique).

كما أجاد العلماء العرب في دراسة ما يطرأ على الأصوات العربية من تغيّرات في السياق من إدغام وتقلب، وغيرها من التغيّرات الّتي يطلق عليها في الّدراسات الصّوتيّة الحديثة **بالدّراسة الفونولوجيّة**.

– مجال الدّراسات الصّرفيّة:

أمّا في **مجال الدّراسة الصرفية والأبنية**، فقد أجادوا فيها أيما إجادة، ونشأت في بحوثهم دراسات تصريفيّة وأخرى صرفيّة وبحوث في الاشتقاق وأبنية الصّيغ وأوزانها وغير ذلك.

ويمكننا القول إنّ دراسة العلماء العرب في هذا المستوى الصّرفي تماثل ما يطلق عليه في الدّراسات اللّغويّة الحديثة **"بالتّوزيعيّة"** والمنهج القالبي.

– مجال الدّراسات النحويّة:

وفي **مجال الدّراسة النّحويّة**، فقد بلغت هذه الدّراسات عند العلماء العرب شأوا وشأنا كبيرا، وظهرت مدارس واتّجاهات ذات خصائص وسمات مثل مدرسة البصرة والكوفة والمدرسة البغداديّة والمصريّة والأندلسيّة، ولا غرابة أن تجد هذا الكم الهائل من المؤلفات النّحويّة الّتي تمثّل أساسًا قويا ودعامتين، وحصنا منيعا للحفاظ على سلامة هذه اللّغة الشّريفة، لغة القرآن الكريم حية مفهومة لدى عقول جميع متكلّميها من المسلمين.

– مجال الدّراسات الدّلاليّة والمعجميّة:

أمّا **دراسات العلماء العرب في مجال الدّلالة والمعجم ف**إنّها تشهد –بحق– قدرتهم على استيعاب مفاهيم هذا المستوى اللّغويّ، وإجادتهم في دراسته، تشهد بذلك الرّسائل اللّغويّة العديدة الّتي تمثّل نمطا تأليفيا فريدا يماثل –تماما– ما يطلق عليه في الدّراسات اللّغويّة الحديثة بنظريّة الحقول الدّلاليّة.

إنّ دراسة العلماء العرب للعديد من الظّواهر اللّغويّة نحو **"التّرادف"** و**"المشترك اللّفظي"** و**"الأضداد"** و**"المعرب"** و" **الدّخيل"**، وغير ذلك من **"قياس"** و**"اشتقاق"**، يدلّ على أنّ هؤلاء

العلماء لم يتركوا شاردة ولا واردة تتعلق بهذه اللّغة العربيّة إلّا وكان لهم فيها قدم راسخة وباع واسعة درسا وفحصا وتمحيصا.

وسنحاول أن نقدّم بعض هذه الجهود الصادقة لبعض أعلامنا وعلمائنا الأجلاء، لنرى مدى ما بذلوه من جهد خالص واتّفاق علمي معجب، ودراسات منهجية فريدة وبخاصة عندما "نقدم هذه الدّراسات التراثية العربية الأصيلة في ضوء معطيات الدّراسات اللغوية والحديثة لتقف على ما تتميّز به هذه الدّراسات عند العلماء العرب من خصائص وسمات وما توصل إليه هؤلاء العلماء من درجة عالية من الدقة والمنهجيّة تضعهم على قدم المساواة في كثير ممّا توصلّوا إليه مع ما توصلت إليه الدّراسات اللّغويّة والحديثة من نتائج ونظريّات.

إنّ إعادة قراءة هذا التّراث اللّغويّ عند العرب أمر واجب على الدّارسين والباحثين الغيورين على أبناء العربيّة في كلّ مكان وزمان، لتبقى هذه الأعمال منبعا ثريّا، ومعينا لا ينضبّ وتأصيلا للدّراسات اللّغويّة العربيّة المعاصرة وإحياء لهذه الدّراسات ولأصحابها الّذين نهضوا بها على مدار الزّمان.